السياسة البريطانية الفارسية

نظرة تاريخية (*)

يوسف رزق الله غنيمة وزير مالية العراق سابقاً

انبأتنا البرقيات بقرار الحكومة الفارسية التي اتخذته في الغاء امتياز دارسي لاستخراج النفط . وكان لهذا القرار دويّ في أربعة اقطار المعمورة رددته الاندية السياسية بشيء كثير من الاهتمام . لما له من الخطورة السياسية نظراً إلى موقف بريطانية العظمى في الشرق في المستقبل ولما لهذا الحادث الكبير من النتائج البعيدة المرامي في نهضة الدول الشرقية . فالسياسيون والاقتصاديون والماليون وعلماء الحق والاجتماع يرقبون هذا الامر بعيون ساهرة ويدرسون تطوّر هذه القضية مليًّا . وتعلق صحف العالم عليه الملاحظات والحواشي كلٌّ بحسب نزعتها وامالها السياسية لاستغلال الموقف . واملنا ان تحل هذه الازمة على اسس التفاهم بين الدولتين ذات الشأن بروح الوداد والتفاهم قبل صدور هذا المقال الذي كتبناه لمعالجة السياسة البريطانية الفارسية من الوجهة التاريخية ليس الاّ وهو بعيد عن المؤثرات السياسية الحاضرة . ولنعطف بنظرة على مشروع دارسي واعمال شركة النفط الفارسية التي شاهدناها في زيارة تلك الانحاء قبل بضع سنوات وعليه نقول :

إذا بحثنا في الصلات السياسية بين الدولتين رأيناها ترتقي الى بضعة قرون غبرت . ففي سنة ١٥٥٨ — ١٥٦٣ كان قد بعث القيصر الروسي ايفان الهائل انطوني جنكنز الانكليزي سفيراً عن دولته الى بخارى وبلاد فارس . فرجع هذا الرجل الى بلاده بريطانيا في سنة ١٥٦٥ ونشر فكرة جديدة بين مواطنيه ترمي الى الشروع بالتجارة مع بلاد فارس عن طريق روسية ولم تكن يومئذ فكرة التجارة عن طريق خليج فارس ومضيق هرمز قد خالجت احداً من الانكليز ولهذا نرى تلك الفكرة قد تأخر نضوجها بعد هذا بنصف قرن

تماطلت احدى الشركات الانكليزية التجارة مع ايران ونالت بعض بوادر النجاح الاّ ان

(*) اعتمدت في هذا المقال على المصادر الآتية : (١) Persian Gulf : Published by The Lord Curzon : Persia (٣) Sykes : A History of Persia (٢) Foriegn Office. No. 78 Sir J. (٥) A. V. W. Jackson : Persia Past & Present (٤) and the Persian Question L. Hartelet : Complete Collection of Treaties etc. (٦) Malcolm : History of Persia E. G. Browne : (٨) Sir H. C. Rawlinson : England and Russia in the East (٧) Persian Revolution (٩) مقال لي في جريدتي « السياسة » البغدادية ١٦ ايار ١٩٢٥ (١٠) جرائد ومجلات في فترات مختلفة

الفوضى التي ضربت اطنابها في الاقطار الفارسية يومذاك والعواصف التي ثارت فضلاً عن هجمات القرصان اضطرتها الى الكف عن الاعمال بعد ان مُنيت بخسائر فادحة وذلك سنة ١٥٨١. وكان طريق هذه الشركة بحر قزوين

لم يكن هذا الاخفاق في التجارة البريطانية في بلاد فارس الاَّ وقتيًّا . لان الانكليز وجَّهوا انظارهم الى تجارة فارس عن طريق الخليج بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية في عهد الملكة اليصابات سنة ١٥٩٩ . تلك الشركة التي كان لها شأن خطير في التجارة والسياسة البريطانيتين

بعثت هذه الشركة سنة ١٦١٤ رجلاً تاجراً من سورات اسمه ستيل ذا خبرة باسواق العجم اكتسبها من سفر قام به من حلب الى الهند عن طريق البر مارًّا ببلاد فارس . وارسلت الشركة معه المستر كروثر . فوصلا اصفهان وهي عاصمة البلاد يومئذ وقدما رسائل التوصية التي كانا يحملانها الى السر روبرت شيرلي فنالا بوساطته ثلاثة مراسيم (فرامانات) من الشاه عباس يأمر بها حكام المرافىء بمدّ ايدي المساعدة للسفن الانكليزية

لم يكن الطريق ممهداً لنجاح الانكليز في خليج فارس لان البرتغاليين كانوا قد استولوا منذ اوائل القرن السادس عشر على مضيق هرمز ونالوا الكلمة الراجحة في النفوذ السياسي في الخليج وعلم الانكليز منزلة البرتغاليين هناك وقدروا الموقف حق قدره وظهرت لهم المزاحة البرتغالية باتم مظاهرها فرأوا ان لا مندوحة لهم عن محاربة البرتغاليين ان ارادوا نجاحاً في تلك الديار فخاضوا معامع القتال من سنة ١٦١٦ الى سنة ١٦٢٥ وحدثت وقائع في اثناء ذلك انتهت بانخذال البرتغاليين ومغادرتهم مضيق هرمز مغادرة لا عودة بعدها . واحتلَّ الانكليز المضيق برضاء الفرس يسندهم في ذلك والي فارس الامام قولي خان بن الله وردي من اعز انصارهم ومواليهم فعقد حلفاً معهم جاء في شروطه : قسمة الغنائم مناصفةً بين الانكليز والعجم . قسمة مكوس هرمز مناصفة بين الطرفين المتعاقدين . استثناء الانكليز من الضرائب . اطلاق الاسرى المسلمين وتسليمهم الايرانيين واطلاق الاسرى المسيحيين وتسليمهم الانكليز . اشتراك العجم في نفقات الاسطول ودفع نصفها

وفي سنة ١٦٢٥ اعاد البرتغاليون الكرة على الانكليز في الخليج فهجم القائد البرتغالي الجديد على الجيش الانكليزي وحرق السفينة الانكليزية التي عملت لبندر عباس ووقعت طائفتها بايدي البرتغاليين فاجهزوا عليهم وقتلوهم شرّ قتلة ولم يخلص منهم الاَّ رجل واحد . وفي سنة ١٦٣٠ حاول البرتغاليون ان يسترجعوا مضيق هرمز ولكنهم اخفقوا

وكان استيلاء الانكليز على هرمز ذا شأن كبير في تثبيت نفوذهم في الهند وبلاد فارس . وكان الفرس يميلون آنئذ الى الانكليز لانقاذ بلادهم من سيطرة البرتغاليين . ويروى عن الشاه عباس انه قال لولا مساعدة الانكليز لما تمكنا من استرجاع هرمز

وفي سنة ١٦٢٧ كانت بعثة السر دومر كوتن والسر روبرت وهربرت شرلي . ذهبوا الى اصفهان واذ لم يكن الشاه هناك سافروا الى اشرف في مقاطعة مزندران فاحتفى بهم الشاه عباس كل الحفاوة واكرم شؤاهم وشرب نخب ملك الانكليز ووعدهم بابتياع بضاعات انكليزية يسدد ثمنها بتصدير عشرة آلاف بالة حرير فارسي في شهر كانون الثاني (يناير) من كل سنة . وقامت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية باعمال تجارية عظيمة في خليج فارس ونالت امتيازات واسعة النطاق من ملوك فارس فكان لها بيت في بندر عباس اغلق سنة ١٧٦١ واسست غيره في بوشهر سنة ١٧٦٣ ونالت مرسوماً في ٢ تموز (يوليو) من تلك السنة من الشاه كريم خان يخولها امتيازات كثيرة ومنها :

(١) اجار لها ابتياع اراض في بوشهر وفي مواضع اخرى من الخليج قدر ما تتطلبه اعمالها وسمح لها ان تعزز ابنيتها بالمدافع (٢) استثنى البضاعات الواردة الى بوشهر والصادرة منه من المكس (٣) منع الشعوب الاوربية الاخرى من استيراد بضاعات الصوف (٤) حتم دفع الديون الى التجار البريطانيين وغيرهم (٥) اعترف بحق الانكليز في شراء البضاعات وبيعها (٦) منع التجارات السرية (٧) منح حرية الدين (٨) وحق اعادة الفارين (٩) استثنى سماسرة الشركة وخدامها وغيرهم من المنتسبين اليها من دفع الضرائب والرسوم (١٠) واعترف بحق الانكليز ان يمتلكوا الاراضي المملوكة باسعار معقولة والاراضي الاميرية مجاناً للدور والجنان

ولما احتل شاه كريم خان البصرة سنة ١٧٧٥ — ١٧٧٦ جامل كل المجاملة القنصلية البريطانية هناك

نرى في هذه المطاوي النفوذ البريطاني يعظم في الخليج الفارسي فالبرتغاليون تركوه في سنة ١٧٢٠ وعقبهم الهولنديون سنة ١٧٦٦ فبقيت بريطانية الدولة الاوربية الوحيدة المستأثرة بالنفوذ هناك . ولذلك نرى فرنسة تحاول ان تعرقل هذا الموقف الممتاز فارسلت بضع بعثات سياسية بين سنة ١٧٩٦ و١٨٠٩ الى الدولة الفارسية لعقد معاهدة تحالف هجومية ودفاعية ضد بريطانية العظمى وروسية . وتوصلت في سنة ١٨٠٧ الى عقد محالفة تنازلت فيها الدولة الفارسية عن جزيرة خارك لفرنسا ولكن يُظَنُّ ان هذه المعاهدة لم يقرها الشاه

قد حان لنا ان نتكلم عن السفير الانكليزي ملكم وبعثته الاولى الى بلاد العجم سنة ١٨٠٠ . كان هذا الرجل شجاعاً فأحبه الايرانيون ورحبوا به وكانت شهرته قد سبقته الى طهران قبل ان يصلها وكانت يومئذ جموع امير الافغان تهجم على الهند فتمكن « ملكم » من عقد معاهدة مع فتح علي شاه تنص على تعهده بأن لا يعقد معاهدة مع امير الافغان ما لم يكف هذا عن الطمع في ممتلكات بريطانيا الهندية وتتعهد بريطانيا مقابل ذلك ان تقدم للدولة الفارسية العتاد ان هجم الافغان والفرنسيون على بلادها ، على ان يعفي الشاه البريطانيين

والهنود من دفع الضرائب في المراقىء . وتمرُّ البضائع الانكليزية كالحديد والفولاذ بالبلاد الفارسية معفاة من المكس

وفي سنة ١٨٠٢ بعث فتح علي شاه وفداً الى الهند برآسة الحاج خليل خان الا ان خادمه قتله . وبعد خمس سنوات بعث وفداً ثانياً برآسة آغا نبي خان

كانت تجارة الرقيق واسعة النطاق في خليج فارس في بدء القرن التاسع عشر ولم يكن هناك قانون يوقف تمادي النخّاس عند حد معلوم فيما يسببه من الاذى والالم للابوين والاقارب الذين يسرق اولادهم وفلذات اكبادهم . فأتت الحكومة البريطانية تريد القضاء على هذه التجارة بالبشر معتمدة على ما لها من الولاء والوداد في قلوب جميع سكان الخليج. فعقدت معاهدة عامة سنة ١٨٢٠ وعقبتها معاهدات واتفاقات خاصة مع امارات الخليج ومع تركيا وفارس، غايتها تضييق نطاق هذه التجارة . وأخذت حكومة الهند على عهدتها كل الوسائل الواجبة لتنفيذ احكام المعاهدات والاتفاق. فكلفها هذا الواجب الشاق الشيء الكثير من النفوذ والمال

واخذت على عهدتها ايضاً مطاردة القرصان واقرار الامن في خليج فارس ومشارفه وتنويره ووضع العوّامات فيه تسهيلاً للملاحة فيه . فكانت هذه كلها عوامل رسوخ السياسة البريطانية في الخليج وامتداد نفوذها في الامارات القائمة على ساحليه . وتوصلت هذه الدولة بدهاء ساستها الى عقد معاهدات مع الدولة الفارسية في السنوات ١٨٠١ و ١٨٠٩ و١٨١٢ و١٨١٤ . وفي هذه المعاهدة الاخيرة تعهدت بريطانية بان لا تتدخل في اي اختلاف يحدث في داخل بلاد العجم وان تحترم ملكية الدولة الفارسية وسلامتها وتعهدت ايضاً مساعدة الشاه في خليج فارس بالسفن الحربية والجيوش ان كان ذلك مناسباً وقابلاً للتنفيذ

ولما انتهزت بريطانية بعثتها سنة ١٨٠٩ على الكوارئم رأت من مصلحتها ان توسّع نطاق اعمالها على الساحل الفارسي حيث التجأ بعض القرصان الذين لهم شركاء في اعمالهم. فساعدت الحكومة الفارسية البريطانيين في مهمتهم هذه فدمّر الانكليز ميناء لنجه وزار اسطولهم بعض المواضع في الساحل

وفي سنة ١٨٢٠ أُنزلت حامية بريطانية في جزيرة كشم باجازة من سلطان مسقط فاحتجّ الشاه على هذا الاحتلال . وفي سنة ١٨٢٨ طلب شيخ بوشهر سرًّا الحماية البريطانية واعرب عن استعداده للقيام باي تعهد يراه الممثل البريطاني موافقاً . الا ان حكومة بمبي رفضت هذا الطلب الذي عدّته لا يتفق والمعاهدات البريطانية الفارسية

وقام خلاف بين الدولة العثمانية وفارس في قضية الحدود بين المملكتين فتألفت لجنة مختلطة من الانكليز والروس في سنة ١٨٢٣ لحلّ هذه المعضلة المعقدة نظراً الى تكوين الاراضي ووجود الهضاب والآكام فيها والى ان سكانها من القبائل الرحّل . فانفضت اعمال هذه اللجنة

الى معاهدة أرض روم التي وقعت سنة ١٨٤٧ . جاء في نصها : على الطرفين المتعاقدين ان يتركا شقة من الارض المتنازع فيها تبتُّ في حدودها لجنة تؤلف لهذه الغاية . فاجتمعت اللجنة الجديدة في ١٨٥٠ و١٨٥١ في بغداد والمحمَّرة ولكنها لم تتوصل الى نتيجة بانة فاقترح الورد بامرستون سنة ١٨٥١ ان يعهد الى ممثلي تركية وفارس تخطيط الحدود العامة في الاستانة يساعدهم في مهمتهم اعضاء اللجنة قبل اقتراحه ودامت اعمال البحث والمساحة حتى سنة ١٨٦٥ فأقرّوا الحدود وشرط الاتفاق ان كل خلاف يحدث في الحدود يرجع في حله الى تحكيم انكلترا وروسيا. وبناء على احكام هذا الاتفاق نظر في الخلاف الذي حدث سنة ١٩٠٧ بين تركية وفارس فتألفت لجنة مختلطة سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العامة قوامها اعضاء من الانكليز والروس والعثمانيين والفرس فبتت في هذه القضية وفي تعديل الحدود فاعيدت الى العثمانيين شقة من الارض في جوار خانقين تعرف « بالاراضي المحوَّلة » . وعلى اثر الحرب العامة وانفصال العراق صارت هذه الاراضي من املاك الحكومة العراقية وفيها ينابيع النفط الذي منح امتيازها الى شركة خانقين وهي فرع من شركة النفط البريطانية الفارسية

قامت الحكومة الفارسية بحركات عسكرية وجهتها هراة وذلك سنة ١٨٣٧ — ١٨٣٨ فارسلت الحكومة البريطانية بعثةً الى خليج فارس واقامت قوةً في جزيرة خارك حتى نزلت الحكومة الفارسية على رغبة الحكومة البريطانية . فلنقف قليلاً هنا لخطورة هذا الحادث فاذا نرى ؟ نرى ان حرباً سجالاً قامت بين مملكة فارس والافغان . وكانت روسيا تعضد ايران ليتسنى لها بسط نفوذها على الافغان وتقاوم من هناك بريطانيا في الهند . ومما لا ريب فيه ان هذا الموقف كان يؤثر في السياسة البريطانية فتضاربت المنافع الروسية البريطانية في آسية الوسطى وانتبهت كل من الدولتين الى تنشيط سياستها في تلك البلاد ونشأت المزاحمة واشتدَّ النضال السياسي بينهما وكانت كلٌّ منهما تحاول ان تنتصر على الاخرى . فكانت روسيا تحمل المملكة الفارسية على الاستيلاء على هراة من بلاد الافغان اما بريطانيا فكانت تمنع الفرس ان يستَرجعوا بلادهم من الروس تلك البلاد التي خسروها في حرب سبقت ويغضّوا النظر عن حرب الافغان . وفي سنة ١٨٣٢ كانت قد عظمت المنافع البريطانية في فارس فارسلت الهند عتاداً وسلاحاً الى الشاه ثم بعثت بعثة عسكرية في سنة ١٨٣٤ ورافق تلك البعثة بعض الضباط الشهيرين ومنهم رولنصن وستورت وشيل ودارسي تود. الاّ ان هذه البعثة لم تفلح كثيراً في مهمتها ولم تأتلف والضباط الفرس . فتركت بلاد فارس سنة ١٨٣٦ وحدث بعد ذلك بسنتين بعض اختلاف بين الدولتين حتى اضطرَّ السفير السر جون ماك نيل ان يغادر بلاد فارس وقطعت العلاقات بين المملكتين

وكان محمد شاه علة توتر الصلات لانهُ كان ميّالاً الى الروس واقعاً تحت نفوذهم خلافاً لسلفه

فتح علي شاه المجال الى الانكليز وصديقهم الحميم

بقيت الرقابة شديدة بين البريطانيين والروس في قضية الحرب بين الفرس والافغان وكان السياسيون البريطانيون يحاولون اقناع الشاه في رفع الحصار عن هراة اما الروسيون فكانوا يبذلون مساعيهم لتثبيت الحصار وتشديده وتنشيط العداء بين الدولتين الشرقيتين الافغان وفارس . واضطرّ اخيراً الشاه ان يرفع الحصار عن هراة ويوافق سياسة السفير الانكليزي السرجون مالك نيل

علينا ان نذكر هنا ان محمد شاه كان قد بعث الى لندن مندوباً عنهُ اسمهُ حسين خان ليرفع الشكوى من السفير البريطاني الى الحكومة المركزية . وكان يومئذٍ اللورد پامرستون وزيراً للخارجية الاّ ان اللورد پامرستون عضد السفير البريطاني فاضطر مندوب الشاه ان يوقع كل الشروط التي طلبها وزير الخارجية البريطاني لرجوع صلات الدولتين

وقد جاء في المادة السادسة من معاهدة باريس عبارة تدل دلالة صريحة على نفوذ بريطانيا ونجاحها في قضية هراة واليكها : « في حال حدوث اختلاف بين حكومة فارس وبلاد هراة والافغان تتعهد حكومة فارس بان تحيل القضية الى الحكومة البريطانية لتحلّها بالتوسط الودي . ولا تأخذ بيدها سلاحاً الاّ اذا اخفقت نتائج هذا التوسط الودّي »

وحدث في سنة ١٨٥٤ خلاف بين بريطانيا العظمى والمملكة الفارسية لم يُعتدَّ بموادره الاّ ان الامر استفحل بعد ذلك . وكان منشأ هذا الخلاف ان السفارة البريطانية عيّنت مرزا هاشم خان سكرتيراً للغة الفارسية فيها وكان هذا من موظفي الحكومة الفارسية وقد تركَ وظيفته قبل بضع سنوات فلم يرق ذلك حكومته . فاشتد الخلاف حتى افضى الامر في سنة ١٨٥٥ الى ان يترك السفير البريطاني المستر مري طهران ويقطع الصلات السياسية بعد مفاوضات عقيمة بينهُ وبين الصدر الاعظم . فظن الصدر الاعظم ان الوقت حان للاستيلاء على هراة

على اثر ذلك عقد الانكليز اتفاقاً مع الافغان وعقبه اتفاق ثان في سنة ١٨٥٦ لان الفرس استولوا على هراة واراد الافغانيون اخراجهم وفي سنة ١٨٥٦ — ١٨٥٧ حاربت بريطانيا الفرس وقصدها من ذلك اخلاء هراة ليس الاّ . فبعثت حملة برأسها السر جج . اوترم الى الخليج الفارسي واستولت على بوشهر في سنة ١٨٥٦ وعلى المحمرة سنة ١٨٥٧ واحتلت القوات البريطانية جزيرة خارك من سنة ١٨٥٦ الى ١٨٥٨

وقبل حملة كاروون والاستيلاء على المحمرة كان قد تمّ الاتفاق بين الدولتين وعقدت معاهدة الصلح في باريس وهي المعاهدة التي ذكرنا احد بنودها قبيل هذا . وبموجب هذه المعاهدة نال البريطانيون امانيهم وأخلى الفرس هراة كما انهم نالوا سائر الشروط التي طلبوها ولم يصل خبر هذه المعاهدة الى السر اوتر رئيس حملة الخليج إلاّ متأخراً لقلة وسائل المخابرة ولفقدان التلغراف

يومئذٍ واشترط في هذه المعاهدة ان يعامل البريطانيون في فارس معاملة اكثر الشعوب حظوى . وبعد تصديقها سحب البريطانيون قواتهم من بلاد فارس . وكانت هذه المعاهدة الثانية بين بريطانيا وحكومة الشاه وأول معاهدة عقدت بين الطرفين كانت سنة ١٧٥١ لتغييق نطاق النخاسة كما جاء قبيل هذا

ان النفوذ الذي ناله الانكليز في بلاد الشاه من هذه الحملة زاد بعد ذلك لما مدّ الانكليز خطوط البرق في تلك الديار بين السنوات ١٨٦٨ و ١٨٧٠ . واول مدير تولى شؤون الخطوط البرقية السر فردريك غولدسمث فابلى البلاء الحسن في مهمته وتغلب بهمته على عقبات خطيرة لانهُ لم يكن في غربي كوادر سلطة حكومية يرجع اليها ومساعيه ومعاونة الميجر لوفت تحددت التخوم بين بلوجستان وفارس فأقرّها الشاه بعد ذلك

ان قضية سجستان كانت المعضلة الاولى التي قامت بعد عقد معاهدة باريس . فكانت هذه الكورة من املاك الحكومة الفارسية ثم انتقلت الى الافغان فقندهار فهراة ثم عادت فاعترفت بسيادة الحكومة الفارسية عليها وفي سنة ١٨٦١ — ١٨٦٣ طلبت هذه الدولة من بريطانيا العظمى ان تتوسط في المحافظة على سجستان من اعتداء الافغان عليها . فأجابت الحكومة البريطانية انها لا تعترف بسيادة الشاه في سجستان ولهذا لا تتمكن من التوسط . فافضى الامر الى نشوب الحرب بين مملكة فارس والافغان فاقترحت آنئذ بريطانية العظمى الرجوع الى التحكيم عملاً بالمادة السادسة من معاهدة باريس . فتألفت لجنة في سنة ١٨٧٢ يرأسها السر فردريك غولد سميث وسافرت من بندر عباس والتحق بها في سجستان القائد بولك ممثل اللورد مايو حاكم الهند العام والدكتور بلو المستشرق الشهير

وكان حكم هذه اللجنة انها قسمت سجستان قسمين سجستان الحقيقية وسجستان الخارجية فأقرّت الاولى لفارس والثانية للافغان وهي شقة من الارض واقعة في ضفة نهر هلمند اليمنى فاخذ هذا النهر منذ سنة ١٨٩١ بتغيير مجراه ولهذا تألفت لجنة ثانية في ١٩٠٣ — ١٩٠٥ للبت في هذه القضية برآسة الكولونيل (السر) هنري مكمهون

وفي سنة ١٨٧١ عين الشاه المرزا حسين خان رئيساً للوزارة وكان هذا سفيراً في الاستانة قبل ان يتولى الوزارة . وكان من خططه السياسية التي رسمها لوزارته ان يحترم معاهدات فارس وروسيا ويعهد بشؤون مهنة البلاد الى بريطانيا العظمى . وتنفيذاً لهذا المنهج اراد ان يوجد احتكاراً عظيماً وان يبني بوارده الخطوط الحديدية ويستثمر المعادن ويؤسس مصرفاً وطنياً فعهد بهذا الامتياز الى البارون جوليس دي رويتر الذي كان من رعايا الدولة البريطانية . الا ان هذا الامتياز العظيم ألغي بعد ان زار ناصر الدين شاه اوربا وكلم الاختصاصيين به فسمع من الاستياء ما لم يدر في خلده قبلاً . ولاسيما استياء الاندية العليا في عاصمة الروس وحتى

في لندن نفسها . وفي سنة ١٨٨٩ عقدت روسية معاهدة مع الشاه تعهد فيها انشاء ان لا يمدّ خطوطاً حديدية في فارس في اثناء عشر سنوات ثم مدت هذه المدة الى سنة ١٩١٠

لم يأخذ رويتر تعويضاً عن انتهاء هذا الامتياز من الحكومة الفارسية الاّ ان الشاه منحه سنة ١٨٨٩ امتياز البنك الشاهاني الايراني . واشتدّت في هذه الحقبة المزاحمة بين البريطانيين والروس في بلاد فارس واخذت تعظم خطورتها سنة بعد سنة اذ كل منهما نشطت لترويج منافعها هناك . وبذلت بريطانيا العظمى جهودها لتفتح نهر كارون للملاحة والتجارة الاجنبيتين وتوصلت في هذه السنة الى غايتها بالرغم من مقاومة الحكومة الفارسية فجرت بواخر لنج نهر كارون

ويروى ان في عهد الشيخ مزعل (١٨٨١ — ١٨٩٧) كانت حرائق المحمرة باشراف بريطانية بغاية توسيع نطاق التجارة ولمقاصد أخرى وبعد انتيالهِ سنة ١٨٩٧ تولّى المشيخة على المحمرة أخوه الشيخ خزعل ولم يكن هذا على وئام مع الحكومة الفارسية المركزية ولهذا نراه في سنة ١٨٩٨ يطلب حماية الدولة البريطانية فرفض طلبه ولكن الحكومة البريطانية وعدته بأن سفيرها في طهران يعضده عضداً مستمراً . وفي سنة ١٩٠٢ استأنف طلب الحماية البريطانية ونظراً الى مطامع روسية واعمالها السياسية في المحمرة فوّضت بريطانيا العظمى سفيرها في طهران ان يتعهد للشيخ بالتأييد البريطاني لهُ وفي سنة ١٩٠٣ جدد هذا العهد . وجاء في رسالة السر هردنك السفير البريطاني الى الشيخ خزعل المؤرخة ٧ ديسمبر ١٩٠٢ ما يأتي :

نحمي المحمرة من كل هجوم بحري تقوم به دولة اجنبية مهما كانت حجة التدخل التي تدّعي . وما زلتم مخلصين للشاه وتعملون بمشورتنا فنحن ايضاً نستمر على معاونتكم ومعاضدتكم

وبقي الصراع السياسي مستمراً بين بريطانيا العظمى وروسيا فقامت روسيا بمظاهرات بحرية في خليج فارس وارسلت بعثة الطاعون الى جنوبي فارس وأسست في سنة ١٩٠٠ شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية وسيرت البواخر بين اوديسة والبصرة وانشأت البيوت التجارية في الخليج وكانت حكومة روسيا تعاون هذه الشركة معاونة مالية

وكانت روسيا تحاول الفوز بقاعدة بحرية في خليج فارس مما دعى اللورد لنسدون الى بيان السياسة البريطانية ذلك البيان الذي اكده السر ا . كري في مطاوي مفاوضات الاتفاق الانكليزي الروسي سنة ١٩٠٧ . وكانت هناك اسباب اخرى مهّدت الطريق لتثبيت النفوذ الروسي مما لا يسعنا الخوض فيها لضيق المقام ومنها القروض الفادحة اقترضتها روسيا الفرس

ولظن ان سفر اللورد كرزن في خليج فارس يومئذ كان لمقاومة الخدمات التي انتابت النفوذ البريطاني الادبي والمادي في خليج فارس . وكان كذلك نتائج مرضية لسفر نائب ملك الهند في خليج فارس سنة ١٩٠٣ اذ كان يخفره اسطول الهند الشرقية . وجاء هذا السفر

مؤيداً لبيان اللورد لنسدون وزير الخارجية البريطاني في مجلس اللوردات جاء في ذلك البيان:

«اقول ولا اتردد انهُ يجب علينا ان نعدّ بناء قاعدة بحرية او مرفأ محصن في خليج فارس تهديداً خطيراً لمنافع البريطانية مهما كانت الدولة التي تقوم به ويجب علينا حقاً ان نقاومه بكل ما لدينا من الوسائل» . فنشّط هذا البيان الموظفين البريطانيين في بلاد العجم وقوّى عزائمهم . ولا نغفل هنا عن ذكر التأثير العظيم الذي احدثه تولّي اللورد كرزن منصب نائب الملك في الهند، ففي عهده فتحت قنصليات جديدة وبعثت بعثات تجارية الى جنوب شرقي فارس ونشطت التجارة البريطانية هناك

ولما اتخذت هذه الوسائل الفعّالة علا تدريجاً نفوذ بريطانيا في فارس وجاءت الحرب الروسية اليابانية وتائجها المؤلمة لروسية مروّجة للسياسة البريطانية في مملكة الشاه فأضطرت روسيا آنئذ الى تغيير سياستها مع بريطانيا في خليج فارس

اشرنا آنفاً الى ان القرضين اللذين اعطتهما روسيا العجم سهلا طريق سياستها وزادا في نفوذها . وكان القرض بادىء بدء يفاوضون الانكليز في عقد القرض الاول الاّ انهم لم يوفقوا بسبب الاختلاف الناشىء آنئذ بين القومين في قضيتي شركة حصر التبغ والبنك الايراني لاستغلال المعادن

اخذت روسيا كمارك ايران (ما خلا كمارك الخليج الفارسي) ضمانة عن القرض الاول وطلبت في القرض الثاني تعديل المعاهدة الروسية الفارسية ووضع تعريف (تعريفة) جديد للكمارك . وبعد مفاوضة في هذا الموضوع توصل الطرفان الى اتفاق تجاري في نوفمبر ١٩٠١ وأقرّ هذا الاتفاق في ديسمبر ١٩٠٢ وتبادلا الوثائق الرسمية وبقي سره مكتوماً حتى فبراير ١٩٠٣ فباغتا باعلانه الجمهور

قابل الروسيون التعريف الكمركي الجديد بكل ارتياح وقابله التجار الانكليز متمعضين لانه كان يمس منافعهم بالاذى وعلى كل كان هذا التعريف انتصاراً باهراً لسياسة الدولة الشمالية

وكان موقف بريطانيا العظمى ازاء هذه القضية صعباً كل الصعوبة ولم يكن لها الاّ احدى طريقين اما ان تحتجّ على هذا الامر وتتحين الفرص لحمل الدولة الفارسية على ملافاته او تفاوض حكومة الشاه في عقد معاهدة جديدة حالاً لغلّ ايدي الروسيين في مناهضة السياسة البريطانية في فارس فرجحت الامر الثاني

بلغ بنا البحث الى امتياز دارسي . ففي سنة ١٩٠١ نال المستر دارسي امتيازاً من الحكومة الفارسية لاستغلال النفط في عربستان وتحول هذا الامتياز في سنة ١٩٠٩ الى شركة النفط الانكليزية الفارسية A. P. O. C وعقدت هذه الشركة اتفاقاً مع شيخ المحمرة ومدت الانابيب واقامت المصافي في جزيرة عبادان . وفي مايو من سنة ١٩١٤ ابتاعت الحكومة البريطانية

حصة كبيرة في شركة النفط الانكليزية الفارسية . والاختلاف القائم اليوم بين الحكومة الفارسية وبين الحكومة البريطانية على هذا الامتياز وسنفرد مقالاً في تاريخ هذه الشركة واعمالها ومشاهداتنا في ميدانها في عدد قادم

وفي سنة ١٩٠٢ زار الشاه مظفر الدين انكلترا وكان يتوقع ان ينال من الحكومة البريطانية وسام ربطة الساق الذي كان يحمله والده الا ان الحكومة البريطانية قدمت اليه صورة الملك ادورد مرصعة بالماس فرفضها وغادر انكلترا مستاء . ويقول احد كتبة الانكليز ان رجال القصر الفارسي عدوا هذا الامر استخفافاً بجلالة الشاه وانتقاصاً من منزلته فلافاة لما كان يعمت حكومة لندن في السنة التالية وفداً حمل الى الشاه الوسام المرغوب فيه

ورأينا النضال السياسي في بلاد فارس بين بريطانيا والدول الاخرى كالبرتغال وهولندة وروسيا وفرنسا وتزاحمها على بسط نفوذها على خليج فارس . ولاسيما روسيا فانها رقيبة بريطانية الدودة في هذه الحلبة . وقد كانت هذه الرقابة بين دولتين اوربيتين عظيمتين مصدر متاعب لحكومة فارس ومنشأ ازمات سياسية ولكنها كانت ايضاً في نفع مملكة العجم في ابان ضعفها وتشتت اوصال الحكم والادارة فيها لانها كانت تحافظ على كيانها باحكام التوازن السياسي بين البريطانيين والروس فتميل بسياستها الى جانب احدهما اذ ترى استفحال نفوذ الجانب الآخر ولا تزال دائبة في سياستها هذه حتى اليوم لا بل عمدت الى اسلوب جديد وهو اشراك بعض الدول في توظيف الاخصائيين الذين تحتاج اليهم في نهضتها فبينهم الالماني والبلجيكي والاميركي

ظهر في ميدان السياسة الفارسية الاوربية في اوائل القرن العشرين شعب جديد حسبت له بريطانيا العظمى الف حساب . ألا وهو الشعب الالماني فان نفوذ الالمان اخذ يتسع في الشرق الاوسط بامتياز خط حديد بغداد . فنص اتفاق سنة ١٩٠٣ مع تركيا على ان يمتد هذا الخط الى نقطة في خليج فارس . وكانت الامبراطورية الالمانية تعد الاسباب قبل ذلك لبسط نفوذها السياسي في الخليج بمختلف الوسائل السياسية والتجارية . فبدأ اسطولها بزيارة الخليج سنة ١٨٩٩ وأسس البيت التجاري ونكهوس ادارات له في مدن مختلفة في الخليج الفارسي . وفي سنة ١٩٠٦ بعثت شركة همبورك اميركا لاين بواخرها التجارية للنقل والملاحة بين اوربا والبصرة وعهدت بوكالتها الى ونكهوس . واخذ هذا البيت احتكار شراء اوكسيد الحديد من ابي موسى . ولم تخف صحافتها خطورة السياسة الالمانية . ونشطت المانيا في سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ لادخال الاسلحة والعتاد في الخليج

وفي سنة ١٩٠٦ ثار الشعب الفارسي على نظام الحكم الاستبدادي واراد الحكم الديمقراطي الدستوري فاضطهدت الحكومة القائمين بهذه الحركة حركة الاصلاح . فلجأ هؤلاء الى السفارة البريطانية وكان عددهم ١٢٠٠٠ نسمة ونيف فلم تنلهم ايدي الحكومة لتقبض عليهم ولم

يغادروا حمام الاّ بعد ان نالوا رغبتهم في عزل عين الدولة ورجوع المجتهدين الذين قدام هذا الرجل الى قم ونشر القانون الاساسي

لننتقل حالاً في بحثنا الى الحرب العامة . فان المملكة الفارسية بقيت محايدة ولم تشترك في الحرب العالمية الكبرى وفسحت مجالاً للدول المتحالفة والمؤتلفة تُنزل الجيوش في اراضيها فاحتلت الجيوش البريطانية ثغر بوشهر في ٨ اغسطس سنة ١٩١٥ وعينت له بريطانيا مندوباً سامياً موقتاً ووضعت السلطة يدها على البريد واستعملت الطوابع الفارسية باضافة العبارة الانجليزية Bushire under British Occupation «بوشهر تحت الاحتلال البريطاني» . ولمجموعة هذه الطوابع مقام في اعين هواة الطوابع ينالون باثمانها لقدمها وندرتها . وبعثت قوة لمحافظة ينابيع النفط في ميدان نفطون وتقدمت القوات الروسية التي كانت محالفة لبريطانيا العظمى من الشمال حتى بلغت حدود العراق لابل دخلت خانقين . وكان الشيخ خزعل شيخ المحمرة موالياً للانكليز يسهل لهم السبل . ثم تسنى للالمان والترك المؤتلفين التوغل في البلاد الفارسية بطريق كرمانشاه فهمذان بعد زوال الحكم القيصري من روسيا . وبعد الاحتلال البريطاني لبغداد تقدمت الجيوش الانكليزية في بلاد فارس من طريق كرمانشاه وتوغلت فيها . واقامت لها مصيفاً في كرند لا بل اتخذت هذه المدينة مقراً للاسر البريطانية سيدات واطفالاً

وبعد ان حطت الحرب العامة اوزارها توصل البريطانيون الى عقد معاهدة مع الفرس بمساعي السر پرسي كوكس سنة ١٩٢٠ يوم كان البرنس فيروز بن فرمان فرما وزير الخارجية الفارسية : الاّ ان البرلمان الفارسي لم يقرّ تلك المعاهدة . وتوصّل البلاشفة الى عقد معاهدة مع الفرس سنة ١٩٢١ فيها الشيء الكثير من التساهل وبهذه المعاهدة قضي على المعاهدة البريطانية الفارسية

بعد ان تولّى جلالة الشاه پهلوي عرش الاكاسرة وجّه انظاره الى الاصلاح السياسي والاداري والمالي فقضى على الامارات الاقطاعية في فارس لتثبيت الوحدة السياسية والادارية في مملكته ومن بين الامراء الذين أخرجهم من امارتهم الشيخ خزعل خان شيخ المحمرة صديق البريطانيين الحميم وأسس البنك المالي وحصر حق اصدار البنكنوت به بعد ان ارضى البنك الشاهنشاهي الايراني (المؤسس من رؤوس اموال انكليزية) بتعويض مالي ليتنازل عن حق اصدار البنكنوت . وكان آخر ما قامت به حكومة جلالة البهلوي الغاء امتياز دارسي وقد اودع حلّ القضية عصبة الامم ولا يزال امرها على بساط البحث . وسنكتب في تاريخ هذا الامتياز فصلاً كما وعدنا قبيل هذا وكل آت قريب

بغداد